الباب الرابع

اللغة عرفانية أم تصورية ؟

الفصل الأول: العقل.

الفصل الثاني: البنية العرفانية والبنية التصورية.

الفصل الثالث: رأي راي ــ جاكندوف حول البنية التصورية.

الفصل الرابع: التصور والتفكير في الدماغ.

الفصل الخامس: النحو الكلي بين البنية التصورية والبنية العصبية.

الباب الرابع
اللغة: عرفانية أم تصورية؟

تكلمنا فيما سبق عن وجود اللغة في المخ، ونشرع هنا في الحديث عن جانب متعلق بالوجود التفاعلي للغة في الدماغ من خلال النشاط الوظيفي للمخ، وهو ما يسمي بـ (العقل والعمليات العقلية) وهو ما يجعل المخ صندوقا للمعرفة؛ تدخله المعلومة لتعالج فيه بمكان خاص تخيلناه وسميناه (الفضاء الذهني)، نكوِّن ونبني فيه تصورنا عن الأشياء بما يعرف بالبنية التصورية. وسمينا العملية كلها بالعملية العرفانية/ التصورية.

جاء هذا الباب (اللغة: عرفانية أم تصورية) مشتملا علي عدة فصول تهدف معا إلي معالجة الفكرة التي يدور حولها هذا الباب، وهي كيف تكون اللغة متصورة أو وسيلة تصور نتصور ونفهم بها الأشياء الغائبة عنا؟ فيصبح كل فصل من الباب ممثلا لمرحلة من مراحل معالجة قضية التصور هذه. وجاء تكوين الباب من هذه الفصول:

الفصل الأول: العقل

لقد بدأ مفهومنا عن العقل يتغير؛ وبدأنا نفهم بعمق أكبر الدور الذي يلعبه في صناعة اللغة؛ فالعقل هو نتيجة عمل المخ، أي النشاط الوظيفي للمخ. لهذا كان علينا التمييز بين المخ والعقل؛ لبيان الاختلاف بين المفهومين فنبني علي هذا الأساس تحليلنا للقضايا المتعلقة بهما؛ في إطار مفهوم أكبر هو البنية التصورية والبنية العرفانية.

ويمكن تصور الفكرة التي تقوم عليها العلاقة بين المخ والعقل من هذا الشكل الآتي:

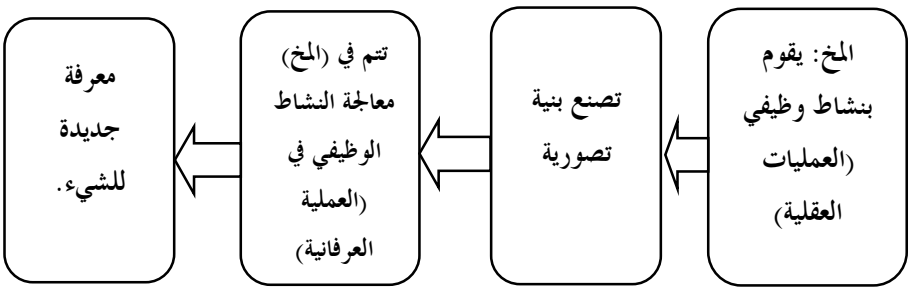

المخ يقوم بنشاط وظيفي (العمليات العقلية) > تصنع بنية تصورية > تتم في (المخ) معالجة النشاط الوظيفي في (العملية العرفانية)> معرفة جديدة للشيء.

بدأنا حديثنا عن العقل؛ لأننا سنبني علي ما قدمناه آنفا من فهم جديد لمصطلح المخ؛ وعمله ونشاطه الوظيفي، المسمي (العقل) الذي يصنع بنيتنا التصورية.

لهذا يجب التمييز بين العقل والمخ أولا، لهذا جعلنا له فصلا مستقلا خاصا لدراسته.

الفصل الثاني: البنية العرفانية والبنية التصورية.

ونأتي إلي القضية الأكبر في هذا الباب وهي العرفانية والتصورية، فجعلنا لها فصلا مستقلا لبيان أصل مصطلح عرفانية ومصطلح تصورية ومفهومهما، والفرق بينهما. ودورهما في بناء اللغة في الدماغ وتصور الأشياء ومعالجتها في الدماغ وقدرتهما علي تحقيق التواصل بين الناس باللغة.

الفصل الثالث: رأي راي ــ جاكندوف حول البنية التصورية.

يعد جاكندوف رائد الفكر التصوري، لهذا جعلت له فصلا مستقلا عن رأيه حول البنية التصورية ومفهومها في ذهنه .

الفصل الرابع: التصور والتفكير في الدماغ.

الفصل الخامس: النحو الكلي والبنية العصبية.

ثم فصل حول النحو الكلي علي فرض أنه يمثل موضوعا متصلا ببنيتنا التصورية. ثم نحاول إثبات صلته بالبنية العصبية والبنية التصورية.

الفصل الأول
العقل

يدور هذا الفصل حول موضوع أساسي هو العقل، في محاولة للتميز بينه وبين المخ / الدماغ؛ نتيجة الخلط الحادث بينهما، وهو محاولة لتوضيح مفهومهما لدى المدارس العلمية المختلفة، والعلماء علي اختلاف تخصصاتهم، لأن الغاية أكبر من أن نمر عليها سريعا. إنها قضية بيان من يفكر فينا العقل أم المخ؟ لذا جاء الفصل في عدة المحاور هي:

- المحور الأول: مفهوم العقل في المذاهب المختلفة.
- المحور الثاني: مفهوم العقل في العلوم الآتية:

أ- علم النفس. ب - علم الأعصاب.

ج - علم البيولوجيا. د- نظرية دارون.

- المحور الثالث: مفهوم العقل عند علماء اللغة:

أ- راي جاكندوف. ب- بيكرتون. ج- تشومسكي.

د- سيرل. هـ- جورج لايكوف ومارك جونسن.

و- عبد الحميد جحفة. ز ـ رأي أخير.

المحور الأول: مفهوم العقل في المذاهب المختلفة

هناك مفهوم خاطئ يقول: إن العقل هو المخ /الدماغ، لكن الأمر غير ذلك. فالمخ/ الدماغ: هو آلة التفكير. والعقل / الذهن: هو النشاط الوظيفي للمخ. لهذا يجب أن نميز بينهما. لقد دار نقاش حول مفهوم العقل والمخ بين العلماء، كان أبرزهم رأي راي جاكندوف الذي قال "إن العلوم المعرفية الحديثة أصبحت تستخدم مصطلح العقل (أو العقل/ الدماغ) للتعبير عن النشاط الوظيفي للدماغ الذي هو واع في جزء منه وغير واع في الكثير من الأجزاء الأخرى."[1]

إن هذا الرأي هو ما بنينا عليه تمييزنا بين العقل كنشاط وظيفي للمخ، وبين المخ كآلة تفكير تقوم بكل العمليات التي نسبناها إلي العقل فقلنا: عمليات عقلية، وهذا ما قالت به العلوم المعرفية في تمييزها بين مفهوم المصطلحين؛ وهو ما ارتضيته تعريفا

(١) دليل راوتليدج لعلم السيمياء واللغويات: ١١٧

للعقل. إن مصطلح العقل يكثر تداوله في علوم شتى، وتختلف الآراء حول مفهومه، لأنه شيء لا تلمسه أيدينا، ولا تراه أعيننا، لكننا نراه ونلمسه في آثاره في كل ما حولنا، وهو دائما ما يوضع في مقابل (الجسد / الجسم / الدماغ / المخ) وهي تشير إلي أشياء مادية ملموسة. لقد أخذ العلماء والفلاسفة منذ العصور القديمة يبحثون عن علاقة العقل بالجسد، واختلفوا في هذا اختلافا كبيرا، فذهبوا مذاهب شتى في تعريف العقل، أهمها:

١- مذهب الثنائيين:

ومعناه القول بوجود الحياة الجسمية والحياة العقلية معا، واختلفوا فيه إلي آراء منها:

أ) إن كلا من العقل والجسم له وجود ذاتي مستقل، وإن كان كل منهما يؤثر في الآخر، ... هذه النظرية تسمى نظرية التفاعل.

ب) رغم أن كلا من العقل والجسم له وجود ذاتي مستقل، فإن كلا منهما يحيا حياة مستقلة، ولا علاقة له بالآخر. لكنهما متوازيان، وتسمى "نظرية التوازي." (١)

٢- مذهب الماديين:

يعني بالوجود المادة (الجسم وحده) أما العقل فصفة للجسم، لهذا انقسموا إلي:

أ- المذهب الفسيولوجي: يرى أن الأعمال التي نسميها عقلية ما هي إلا وظيفة من وظائف الجهاز العصبي، وعلي الأخص المخ، وبرهانهم الرابطة المتينة التي بين الجهاز العصبي وبين الأعمال العقلية ... إن العقل ما هو إلا صفة من صفات الجسم الحي.

ب- المذهب الآلي: يرى أن الأعمال التي نسميها عقلية ما هي إلا أعمال عرضية أو نتائج قهرية تحصل عند قيام الجسم بوظائفه الأخرى. ويشبهون الجسم بالآلة، والأعمال العقلية بالبخار ... ويقولون إن الأعمال العقلية نتيجة حركات ذرات المادة، أو أنها حركات تيارات من النشاط المادي الموجود بالعالم." (٢)

---

(١) علم النفس التربوي: بتصرف ٨١ ــ ٨٢

(٢) علم النفس التربوي: بتصرف ٨١ ــ ٨٢

٣- المذهب الروحاني:

هذا المذهب يقول بوجود العقل فقط، أما الجسم فلا وجود له في الخارج، ذلك لأننا لا نعرف شيئا عن الجسم إلا بالعقل، فالعقل هو الكائن الموجود بالفعل، الذي لا يشك في وجوده، أما الجسم فلا وجود له إلا بالذهن، وما هذه الأجسام التي نراها في الخارج إلا صور وهمية لتلك الحقائق الذهنية التي تكون العقل." [١]

٤- مذهب التشكك:

وهم ينظرون إلي كل شيء بمبدأ التشكك في كل حقيقته "[٢].

لقد عرضنا هنا لأهم المذاهب في تعريف العقل، وذلك لأهمية هذا الاختلاف، وما يترتب عليه من توجهات مختلفة في تحليل العقل وعمله، وكذا في تحليل السلوك اللغوي كعمل عقلي أو غير ذلك؛ خصوصا توجه المدرسة العرفانية بزعامة جورج لايكوف في بيان العلاقة بين الجسد والعقل؛ كما ورد في كتابه "الفلسفة في الجسد".

المحور الثاني: مفهوم العقل في العلوم المختلفة

اختلفت العلوم في رؤيتها للعقل؛ فعرفه كل علم حسب تصوره له، وكان أهمها:

أ- علم النفس:

تحدث علماء النفس عن العقل من خلال موضوعات مختلفة وقضايا متنوعة هي:

١- علم النفس يشكك في العقل:

علم النفس الحديث لا يعترف بوجود كائن يسمى عقلا، أو نفسا، أو روحا يمكن إجراء التجارب عليه، أو ملاحظته وحده، ولا يرى أن هناك شيئا خاصا موجودا تصدر عنه الأعمال التي نسميها في الإنسان أعمالا عقلية، ... وإنما يعترف بوجود أعمال خاصة لها خصائصها ومميزاتها وقوانينها وليست أعمالا مادية جسمانية. فمجموع هذه الأعمال المعنوية تسمى عقلا ... والبحث في أصولها والوصول إلي القوانين التي تخضع هي لها هو موضوع علم النفس."[٣] لهذا فإن المقصود بالأعمال العقلية عند علم النفس النشاط الوظيفي للمخ، لهذا فهو يؤمن بوجود العقل كنشاط وظيفي للمخ.

---

(١) علم النفس التربوي: بتصرف ٨١ ــ ٨٢

(٢) علم النفس التربوي: بتصرف ٨١ ــ ٨٢

(٣) علم النفس التربوي: ج١ ص ٧٠

٢- دلائل وجود العقل عند علماء النفس:

"هناك دليلان علي وجود العقل: أحدهما داخلي وهو المخ أو الجهاز العصبي، والآخر خارجي وهو السلوك."[١] هذا القول يخالف سابقه الذي يرفض وجود مخلوق اسمه العقل، لكنه يحيل الأمر إلى المخ كدليل على وجود العقل، لأن العقل نشاط وظيفي للمخ؛ فلولا وجود المخ ما وجد العقل، فهو دليل عليه. كذلك السلوك الذي يمثل نتيجة نشاط المخ الوظيفي وعمله الذي يظهر في سلوك منظم معلل يتسم بالحكمة، يصدر من شخص نصفه بالعقلانية نتيجة عمل مخه، مما يجعلنا نسمي سلوكه بالمتعقل. إن العقل موجود في سلوك الآخرين، دون وجود مادي له كجزء من أجزاء الدماغ /المخ.

لهذا لو سرنا مع مفهوم العقل عند علماء النفس؛ فسنرى أنه ليس شيئا ماديا؛ ولكننا ندركه من خلال آثاره في كل شيء حولنا. والدليلان علي وجوده يعطيان تصورا عن كيفية متابعة العقل وعمله بصورة مادية ملموسة؛ وذلك من خلال الدراسة التشريحية والفسيولوجية للمخ والجهاز العصبي، والدليل الثاني هو متابعة سلوك الفرد الذي يظهر فيه أثر عمل العقل، أي من خلال العمليات العقلية المختلفة، وما ينتج عنها من عمليات معالجة أشياء كثيرة ناتجة عن عمليات التفكير، واللغة هي أهم ظواهر العمليات العقلية؛ وهي دليل علي وجود العقل؛ فاللغة يتم معالجتها كعملية عقلية بالمخ.

٣- هل العقل يتطور؟ فرق آخر بين العقل والمخ:

يقول علماء النفس التربويين "من حيث إن التطور العقلي يتبع دائما التطور العصبي، ولاسيما تطور المخ فإنَّا لا نري مفرا من أن نجزم بوجود رابطة متينة بينهما، وأن نقول فوق ذلك أن الجهاز العصبي أشبه شيء بآلة يستعملها العقل ويتخذها وسيلة للتأثير في جميع أجزاء الجسم الأخرى، وبهذه الوسيلة يتوصل إلي التأثير في العالم الخارجي."[٢]

---

(١) علم النفس التربوي :ج١ /٧١

(٢) علم النفس التربوي: ج١/ ٧٤

إنها الطبيعية التكوينية للأشياء البيولوجية؛ أنها دائما في تغير وتطور. فالمولود يولد ووزنه ثلاثة كيلو جرام تقريبا؛ ثم ينمو ويزيد ليصل إلي مائة كيلو جرام أو أكثر، وتنمو في داخله كل أجهزته. فالجهاز العصبي ينمو ويتطور، وينمو كل ما يتصل به؛ لهذا فإن العلاقة وثيقة بين التطور الحادث في الجهاز العصبي (ويشمل المخ) والجسم كله؛ لأن كل نمو وتطور يحدث في الجهاز العصبي؛ تظهر آثاره في المخ ونشاطه الوظيفي في شكل عمليات عقلية؛ فالعقل هو النشاط الوظيفي للدماغ (علي رأي بعض المذاهب السابق ذكرها)، ولكن المؤلف يشير إلي أن العقل يستعمل الجهاز العصبي كاستعمالنا للآلة، والحقيقة عكس ذلك فالعقل وظيفة للآلة (الدماغ /المخ)، ومن هنا يختلف الموقف؛ فالعقل ليس هو من يستخدم الآلة، بل هو النشاط الناتج عن عمل تؤديه الآلة؛ وهو ما يعرف بالعمليات العقلية أو النشاط الوظيفي للمخ.

ب– علم الأعصاب:

تناول علماء الأعصاب موضوع العقل من خلال قضايا هي:

١– تفسير العقل: أعلن علم الأعصاب عن عجزه عن تفسير كنه العقل، فقد وضع العقلَ كمقابل للمخ، لأن المخ هو الشيء المادي الواقع تحت التحليل المعملي والتصوير بأنواعه؛ علي الرغم من أن العقل كما رأينا هو وظيفة المخ في بعض الآراء، يقول مارك سيمز عن عجز العلم كله عن معرفة كنه العقل كسمة للمخ: "العلم لا يستوعب سمة أمخاخنا الأكثر إذهالا وإدهاشا وربما الأكثر تمييزا له أيضا: ألا وهي العقل"(١)

إن العلم علي الرغم من تقدمه إلا أنه لازال عجزا عن تفسير ماهية العقل التي هي السمة الكبرى لأمخاخنا، فالعلم بكل بحوثه ودراساته لا يستطيع أن يوضح هذه السمة، أي العقل، وهو ما يميز المخ، فالعلم الفيزيائي لم يستطع الوصول إلي ماهية العقل.

وقد عجز علم الأعصاب أيضا عن بيان حقيقة العقل "فليس لديه تعريف دقيق للعقل، وذلك لأن علم الأعصاب لم تكن لديه حاجة لتفسير الظواهر العقلية للارتقاء

(١) البنية المحال اختزالها للعقل :١١

بالفهم البنيوي والوظيفي للمخ، ... ويدرك علماء الأعصاب الجادين أنه لكي يكتمل علمهم، ويصبح شموليا، يجب أن يفسروا أو يعللوا ظاهرة العقل بطريقة علمية، فالوضع الراهن هو أنه كلما يضطر العلماء إلي وضع العقل في الاعتبار تخضع ردود أفعالهم لانطباعات شخصية وذاتية وغير عقلانية تخلو من الدليل العلمي؛ فيجنحون بنا إلي ما وراء الخطاب العلمي. ووفقا لقدرة المرء علي الإقناع، يتخذ النقاش إما شكل السفسطة بشأن العقل، وإما اختزاله في الشكل المادي. إن الفجوة بين المثاليين والماديين مازالت قائمة، وعلي المرء أن يختار إلي أي الفريقين ينتمي"[1]

لقد أشرت آنفا إلي هذا الخلاف بين مدارس علم النفس حول حقيقة العقل، وقد تأثر علماء الأعصاب بهذا الخلاف الذي امتد إليهم؛ فالخلاف بين المثاليين والماديين هو خلاف فلسفي ونفسي ظهر في علم النفس والفلسفة.

٢- العقل وظيفة المخ: أشار ديكون إلي دور علم الأعصاب في دراسة وظيفة المخ، وبين حاجتنا إلي نظرية شاملة عن وظائف المخ أي إلي بيان مفهوم العقل، لنصل إلي كيفية معالجة اللغة؛ فقال "إذا كان علم الأعصاب قد سبر أغوارا عميقة لكشف غوامض وأسرار وظيفة المخ، فإننا لا تزال تعوزنا نظرية عن وظائف المخ في شمولها ووحدتها"[2].

إنه يشير إلي أصل القضية المجهولة بالنسبة لنا؛ وهي وظيفة المخ التي تسمي العقل، لهذا يجب وضع نظرية عامة تبين نشاط المخ الذي هو عمليات عقلية يقوم بها المخ، ونلمسها في كل ما يحدث في أدمغتنا من عمليات تفكير وحوار وغيرها. إذن فوظيفة المخ أن يقوم بنشاط كبير داخلنا؛ هو ما نسميه بالعمليات العقلية، فالعقل وظيفة المخ.

وقد أكد مارك سيمز علي عجز علم الأعصاب عن تحليل منطقي للعقل كوظيفة للمخ، وتقديم تفسير للعمليات العقلية بقوله "لم يتسن لعلوم الأعصاب إنتاج تحليل منطقي وتجريبي للعقل يوضح القوة العالمية الذاتية التفسيرية للظواهر العقلية البشرية علي المستوى الفردي ومستوى الأجناس"[3].

---

(١) البنية المحال اختزالها للعقل: ١٢

(٢) الإنسان . اللغة . الرمز:٣٠ ــ ٣١

(٣) البنية المحال اختزالها للعقل:ص ١٠

لا زال العقل كنشاط وظيفي للمخ مجهولا لدى علماء الأعصاب، فهم لم يخرجوا لنا تحليلا منطقيا وتجريبيا للنشاط الوظيفي للمخ المسمي عقلا؛ ليوضح لنا كيف نفسر الظواهر العقلية علي مستوى الفرد والأجناس. وهذا يعني أن ما قدمته العلوم العصبية من دراسات لا تحوي تحليلا منطقيا وتجريبيا لتلك الوظيفة (العقل)؛ إذ إن هذا الأمر يحتاج إلي طرق ومناهج أخرى، تختلف عن التحليل المعملي والبيولوجي الذي يقدمه علم الأعصاب من خلال دراسة المخ؛ بكل آلياته كتصويره للمخ وعمله أثناء الكلام. لماذا؟ لأنهم اعتبروا العقل شيئا مستقلا منفصلا عن المخ؛ وهذا رأي بعض المدارس النفسية في تفسير العقل، وهو المذهب المادي الفسيولوجي.

والحقيقة أن العقل هو النشاط الوظيفي للمخ، فهو نتيجة عمله؛ هذا رأي المدارس النفسية، وهو مقنع بالنسبة لِيِّ؛ وذلك لتوافق هذا الرأي مع الواقع العملي للمخ.

٣- لماذا لم يدرج العقل ضمن علم الأعصاب؟: كما ذكرنا آنفا أن العقل وظيفة للمخ؛ فهو لا يدخل ضمن المكونات البيولوجية للمخ، ولهذا استبعد علمُ الأعصاب العقلَ من بين الموضوعات التي يدرسها؛ فالمخ من يقوم بالعمليات العقلية، والعقل ليس له تكوين بيولوجي، لأنه لا وجود له كمادة، بل هو نشاط وظيفي للمخ، وعلم الأعصاب معني بالجانب البيولوجي في الإنسان فقط. يقول سيمز "ولا يمكن لهذه العملية العقلية أن تتم دون وجود المخ البشري، فالمخ يعمل ما يطلق عليه بولاني اسم الشروط الحدِّيَّة لأنشطة العقل، لكن عندما نتذكر أن الشرط ليس سببا؛ تنشأ مشكلة أنه ما من كمية من البيانات متاحة عن المخ البشري نفسه تفسر سمات العقل البشري. إن التغافل عن هذا اللبس المنطقي بين الشرط والسبب هو الذي حال دون إدراج موضوع العقل ضمن نطاق علم الأعصاب، ... لكن مقارنة غرينفيلد الجديدة تنبع من إعادة توجيه بؤرة البحث باتجاه طبيعة العقل وعلاقته بالمخ البيولوجي[(١)]".

إن قضية أن المخ يعمل في إطار ما يسمى بالشروط الحدّيّةِ لأنشطة العقل؛ تعني أن المخ يضع حدودا لنشاطه المتمثل في ما نسميه العقل؛ فالعقل نشاط محدد بقدرة وإمكانية هذا المخ دون غيره، وهو شرط في عمله، لهذا ما لدينا من بيانات عن المخ لا

(١) البنية المحال اختزالها للعقل:١٣

تفسر سمات العقل، فالتحليل البيولوجي للمخ لا يفسر خصائص العقل، لأن العقل يخضع لمقاييس أخرى، مما جعل علماء الأعصاب لا يدخلون العقل ضمن دراستهم لأن له مقاييسه الخاصة. لهذا ركزت غرينفيلد دراستها نحو بحث طبيعة العقل وعلاقته بالمخ البيولوجي، أي سمات العقل كمفكر للإنسان وطبيعة تكوين المخ البيولوجية، وتأثير مكونات أخرى على المنتج الذي يصدر عن المخ (نشاطه الوظيفي) الذي نسميه العقل والذي هو التفكير والعمليات العقلية. فعندما يُقدِّم لنا المخُ نشاطا ما من عمليات عقلية يجب أن نحللها ليس في ضوء تكوينه البيولوجي فحسب، بل في ضوء المؤثرات الأخرى مثل التكوين البيئي له وظروفه الاجتماعية والعلمية وغيرها لنصل إلى نتيجة مفادها أن الظروف الخارجية تؤثر على تكوين المخ وسلوكه المتمثل في العمليات العقلية لصاحبه.

ج) علم البيولوجيا:

كان لعلم البيولوجيا رأي في قضية العقل؛ أشار إليه من خلال الموضوعات الآتية:

١- الفرق بين العقل والدماغ: يقوم علم البيولوجي بتحليل الجهاز العصبي وبيان عمله؛ فهل التحليل البيولوجي للدماغ يمكنه أن يفسر لنا ماهية العقل؟ يجيب مارك سيمز علي ذلك بأمرين:

أ) "إن ظواهر عقلنا يستحيل تفسيرها،... بوجود أمخاخنا، لأنه من الواضح أن العمليتين تتألفان من أنواع مختلفة من الحقائق، التي لا يمكن ترجمتها إلي بعضها بعضا من أدناها إلي أعلاها"[(١)]، إنه يري استحالة تفسير وجود العقل بوجود المخ، لأن كل منهما أتي من عالم مختلف، فما يُحْدِثُهُ المخ ُمن ظواهر عقلية مثل التفكير والنقاش والجدل والإبداع؛ لا يمكن أن نجد له تفسيرا ماديا من خلال التحليل المعملي لها. بل يمكن أن نرجعها إلي العمليات العقلية نسبة للعقل؛ فنقول إن لدينا أمخاخ هي من تقوم بهذه الظواهر. فالمخ آلة والعقل نشاط وظيفي لها، فهما وجهان لعملة واحدة. فالمخ/ الدماغ مادي بيولوجي، يقوم بنشاط وظيفي يسمي العقل، والعقل هو النشاط الوظيفي للدماغ، المتمثل في العمليات العقلية (في بعض الآراء كما ذكرنا آنفا).

---

(١) البنية المحال اختزالها للعقل:١٣

ولهذا – كما يري سيمز – إن كلا من العقل والمخ يتكونان من عالمين مختلفين، فلا يمكن أن نفسر أحدهما بالآخر. ولا يمكن أن يلتقيا؛ فالمخ من عالم البيولوجيا الذي يخضع للتحليل المعملي كشيء مادي، والعقل هو النشاط الوظيفي للمخ / الدماغ.

ب) نظرا لأن المخ مكون بيولوجي؛ فإن له قوانينه البيولوجية التي تحكمه؛ يقول سيمز "قوانين البيولوجيا تحكم بنية المخ ووظيفته. لكن الخصائص البيولوجية للمخ ليست حاسمة بشكل إيجابي في أي حالة من حالات العقل، أي إنه ليس عقلي الأمريكي هو الذي يحدد أفكاري المستندة إلي اللغة الإنجليزية والمعاصرة لنماذج وتوجهات القرن الحادي عشر، بل أنشطة العملية العقلية التي أخفقت في تفسيرها كل التعليلات البيولوجية "[1].

إن الخصائص والقوانين البيولوجية التي تحكم المادة التي يتكون منها المخ؛ ليس لها تأثير علي العمليات العقلية التي تحدث داخل المخ، فليس مخي (أي بيولوجيا مخي) هو من يحدد أفكاري؛ بل الأنشطة العملية العقلية التي تحدث داخل مخي (التفكير. الابتكار. الإبداع) هي من يتحكم في المنتج الخاص بي، أي النشاط الوظيفي لمخي؛ فهو من يتحكم في أفكاري، فلا تأثير للعملية البيولوجية عليَّ، ولا انتمائيِّ إلى أمريكا.

إذن هناك عالم مستقل عن مخي وبيولوجيا مخي؛ يوجد داخل مخي؛ إنه العقل وما يقوم به من أنشطة تسمى العمليات العقلية، نحو: التفكير والإبداع وخلافه. فهو عالم آخر غير عالم البيولوجيا المخية، وما تحيط به من أحداث هي من تؤثر على المنتج النهائي؛ أي العمليات العقلية التفكيرية، وهى تختلف عن أنشطة مخ غيري ممن لم يعش في البيئة والظروف الخاصة بي، فلا تأثير للجنسية علي المخ؛ لكن في العمليات العقلية التي تشير إلى البيئة التي تكوَّنَ ونشأ فيها هذا المخ، وأثرها على نشاطه الوظيفي، وما يحدث به من تفاعل؛ فهو من ينتج عنه تفكيرنا العقلي.

إن خصائص المخ البيولوجية ليس لها تأثير حاسم وإيجابي في أي حالة من حالات العقل. حيث العقل له أداء خاص؛ نابع من حقيقة عمله التصوري غير البيولوجي.

---

(١) البنية المحال اختزالها للعقل :١٣

إن الذي يتحكم في العقل بحالاته المختلفة هو" أنشطته العملية العقلية التي أخفقت في تفسيرها كل التعليلات البيولوجية"[1]، وليس انتمائه إلى الشعب الأمريكي أو غيره. فأنشطة العمليات العقلية أي ما يقوم به العقل من عمليات عقلية تفكيرية مختلفة تحدث في التو واللحظة؛ هي من يتحكم في سلوك الفرد؛ فتظهر في سلوكه. لقد فشلت التعليلات البيولوجية في تفسير العمليات العقيلة؛ لأنها أتت من عالم آخر غير بيولوجي. فمن يصنع عالمنا التصوري ليس العقل؛ لكنه المخ من خلال نشاطه الوظيفي المسمي (العقل)؛ فيصنع لنا عالمنا التصوري وبنيته التصورية / العرفانية داخل فضائنا الذهني.

٢- مقارنة بين التحليل البيولوجي والتحليل العقلي: يمكن أن نحلل العقل علي أنه شيء مادي، كما يحدث في عالم البيولوجيا علي مستوى الخلية العصبية وجزيئها؛ ولكن لا يمكن اكتشاف تأثير خلية بعينها أو مجموعة خلايا علي النظام البيولوجي؛ فالظواهر البيولوجية التي تحدث داخلنا لا يمكن إرجاعها إلي خلية بعينها أو مجموعة الخلايا العصبية إلا في الحالات المرضية؛ بأن تصاب الخلية أو الخلايا أو الباحة اللغوية بمرض ما ينتج عنه خللٌ في هذه الوظيفة. يقول مارك سيمز "وكأي عملية بيولوجية ديناميكية، لا تتسم العملية الرمزية بالثبات قط، وعلي الرغم من هذه الدينامية، فإن معنى أي رمز يمكن اكتشافه طالما أن هناك دليلا سياقيا كافيا يرتبط بموضوع البحث، ويمكن أن نتخيل طريقة التحليل هذه بوصفها مناظرة للتحليل البيولوجي علي المستوى الخلوي والجزيئي. فلا يمكن استكشاف وجود أي خلية بعينها أو مجموعة من الخلايا وأثرها في النظام البيولوجي، ومن ثم تفسيرها سوى في حالة سهولة الوصول تجريبيا إلي دليل سياقي كاف عن المريض في النظام."[2] يمكن تحليل معنى الرمز الذي يمثل نشاط العقل، وبذلك نكون قد حللنا العقل؛ كما يحدث في تحليلنا للظواهر البيولوجية، وذلك بتحليل السياق الذي وردت فيه الكلمة ذات المعني المطلوب، وهذه محاولة منه لتقريب الفكرة التي تقوم عليها عملية تحليل العقل؛ هكذا شبه مارك سيمز؛ وهذا تشبيه جيد.

---

(١) البنية المحال اختزالها للعقل :١٣

(٢) البنية المحال اختزالها للعقل:١٥

٣- العلوم المعرفية والعلاقة البيولوجية بين العقل والدماغ: يعرض غي تيبرغيان رأيا آخر حول العلاقة التفاعلية بين المخ والعقل التي تظهر من خلال عمليات التفكير، حيث يتم تفاعل الجانب البيولوجي مع العقل؛ ليُدخل المعلومة إلي الدماغ، وأن المسئول عن هذه العملية المعرفية واكتساب المعرفة وظيفةٌ بيولوجيةٌ في الدماغ؛ تؤدي إلي إنتاج المعرفة واستخدامها، وهو ما أشرت إليه آنفا وسميته القدرة علي التعلم. يقول **غي "عندما نتكلم عن المعرفية الطبيعية، فهذا يعني أنه يوجد في زاوية من زوايا الكون في أدمغة الحيوانات الأكثر تطورا، والكائنات البشرية ــ وظيفة (بالمعنى البيولوجي للكلمة) تؤدي إلي إنتاج المعرفة وإلي استخدامها، إن مفردة معرفية تعني هذه الوظيفة والمضامين التي تطورها، في آن معا. وتضيف فرضية تفاؤلية أن هذا التجهيز الدماغي، الذي يؤمن تفاعلات الأفراد مع الواقع الفيزيائي، والذي يتم بين الأفراد أنفسهم، وينقل التصورات عبر اللغة وداخل التاريخ، يُمكن من الزيادة التراكمية للمعلومات"**[(١)] هذا النص من الأهمية بمكان أن نناقشه لنخرج منه بالآتي:

أ) أن حديثه عن فرضية تجهيز الدماغ؛ هي فرضية وليست حقيقة علمية مؤكدة.

ب) أن الدماغ مزودة فطريا بتجهيزات تمكنها من الزيادة التراكمية للمعلومات، وتلك قدرة من قدرات الله التي وهبها للإنسان، وهي القدرة علي التعلم واكتساب المعلومات التي تتراكم داخل الدماغ ــ كما أشرت آنفا ــ وأشار إلي جانبها اللغوي تشومسكي وسماها جهاز اكتساب اللغة، وهي تتلخص في القدرة علي التعلم التي تمكنه من اكتساب اللغة.

ج) أن (غي) يعد هذه القدرة وظيفة بيولوجية معرفية، وهذه القدرة موجودة في زاوية معينة داخل أدمغة البشر، تؤدي إلي إنتاج المعرفة واستخدامها. وقد عدها بيولوجية ليقرن بين الجانب البيولوجي المادي، وبين الجانب التفكيري الخاص بالعقل المتمثل في عملية التعلم وجمع المعلومات. إنه يميز بين الجانب البيولوجي المادي والجانب العقلي، ثم يقارن بينهما من خلال المنتج النهائي لهما وهو عملية التفكير.

---

(١) قاموس العلوم المعرفية: ١٢٨

د) يشير إلي أن هناك جزءًا بيولوجيا في أدمغتنا يفكر هو الخلية العصبية التي تصنع اللغة.

د) في نظرية دارون:

حاول العلماء توظيف نظرية دارون عن التطور في حل المشكلات التي تخص بحوثهم العلمية؛ مما لا يجدون لها إجابة في بحوثهم علي تنوع تخصصاتهم العلمية والنظرية والتطبيقية، وكان من أهم المشاكل الحاضرة في هذا النقاش مشكلة اللغة وتطورها، باعتبارها ظاهرة عقلية متطورة. نحاول نقاشها في إطار نظرية دارون.

١- فكرة التطور: امتدت فكرة التطور الدروينية إلي علوم شتي، فأُعتُبر المخ عنصرا متطورا، فمخ الطفل يولد فارغا من كل المعارف علي خلاف حول ذلك؛ فيأتي دون معلومات؛ ثم ينمو ويتطور، وقد تأثرت غرينفيلد بنظرية دارون التطورية؛ فاعتبرت العقل كائنا مستقلا عن المخ، وشيء يعمل داخله، وأن عمل العقل هو عملية الترميز، وكذا رأت أن العقل ظاهرة ناشئة؛ لتحل بهذا الرأي مشكلة العلاقة بين العقل والمخ أي العلاقة بين التفكير والبيولوجيا، فالمخ عنصر بيولوجي يتطور تبعا للقوانين البيولوجية ويخضع لها، وكذا العقل باعتباره ظاهرة ناشئة قابلة للنمو والتطور كالمخ. خُلع هذا الفهم التصوري عن التطور البيولوجي للمخ علي العقل وتطوره؛ فقارنوه وقابلوه بظاهرة الحياة التي يمكن أن نُخْضعها للتحليل المنطقي والتجريبي، كما يري دارون.

٢- الحياة: يقول مارك سيمز "تشبه المشكلة التي مثلتها الحياة لمعاصري دارون من عدة طرق المشكلة التي يمثلها العقل لعلم الأعصاب الحديث، حيث أعاق تفسيره التصنيف ما بين الماديين والحيويين (المادة في مقابل الروح)"[(١)]، ما مفهوم الحياة بالنسبة لمعاصري دارون؟ إنها لغز غير مفهوم؛ لهذا فهم يسألون: ما الحياة؟ وهذه المشكلة تشبه مشكلة العقل بالنسبة لعلم الأعصاب، ففي الجانبين (المشبه والمشبه به) شيء مجهول غير مادي ولا ملموس، إنه العقل والحياة والروح، فما سر العقل؟ وما سر الحياة؟ وما سر الروح؟ إنها المشكلة الجدلية التي لم نلق لها حلا؛ وهي المادة التي

(١) البنية المحال اختزالها للعقل:١٦

يتشكل منها وجود كل الكائنات الحية، وهى الروح الشيء الخفي الذي لا علم لنا به إلا أنه سر حياتنا. فكثر جدل الفلاسفة حولها وانتهوا إلى عجزهم عن فهم حقيقتها.

"لم يتفق علماء الفيزياء والكيمياء وعلماء الطبيعة علي أصول وطبيعة الحياة نفسها، واتخذ النقاش إما شكل اختزال الحياة إلي مكوناتها المادية (الفيزيائية الكيميائية) أو الاعتقاد بتدخل قوة إلهية مبدعة. من هذا المنطلق، لم يتسن تعريف الحياة، وتعذرت دراسة قوانينها الطبيعية والوظيفية وتفسيرها، حتى حفز كتاب داروين أصل الأنواع الدراسة العلمية للحياة بمعاملتها كظاهرة ناشئة"[1]

هل يمكننا اختزال الحياة في المادة كظاهرة ناشئة تنمو وتتطور؟ أم يمكن إرجاع الحياة إلي قوة إلهية مبدعة هي من أوجدت الحياة! إنه سؤال خطير يوجِّهُ هذه العقول المنكرة بوجود قوة غيبية إلي الإيمان بوحدانية الصانع سبحانه وتعالى، فهناك صانع لا يعرفونه؛ هو من وضع فينا وفي الكون كله سر الحياة. إنه العجز البشري الذي يلجأ إليه كل عالم مهما علا شأنه؛ فيعلن عجزه عن تفسير الظاهرة بإسنادها لقوة غيبية سموها ما شاءوا، لكنها موجودة في واقعهم العلمي المعملي. فتعالى الله خالق كل شيء عمّا يشركون.

ظل الأمر كذلك حتى جاء داروين وذكر في كتابه أنه يجب معاملة الحياة علي أنها ظاهرة ناشئة، أي حادثة قابلة للتطور. فكل شيء في الحياة يتطور وفق قانون وضعه لتطورها "الانتخاب الطبيعي" حيث تنتخب الطبيعة الأفضل - كما يرى - لكننا نسأل هل للطبيعة عقل لتنتخب به الأفضل من الأشياء وتترك ما دونه؟ وإذا كان الأمر كذلك؛ فلماذا تنتخب الطبيعة أشياء ليست دائما هي الأفضل؟ أين المجيب يا قومنا!

٣- آلية التطور عند داروين: يقول مارك سيمز "قانون داروين في التطور الذي تلتزم به جميع الحقائق البيولوجي، هو التطور بالانتخاب الطبيعي، ... وتجاوز قانونه القوانين التي تحكم الكون المادي (الفيزياء الكيمياء) ... إن وصف داروين الحياة

(١) المرجع السابق: ١٦

باعتبارها عملية تطور عبر الانتخاب الطبيعي ... سلم بالواقع العضوي، وجعل لخصائصها الوظيفية وظيفة في تحليل منطقي وعلمي. خلع داروين مفهوما علي ظاهرة الحياة ووصفها باعتبارها واقعا له خصوصيته واقعا متفردا."[1] إن فكرة الانتخاب الطبيعي الذي نادي بها داروين تعني أن هناك قوة كامنة داخل كل خلية؛ تنتخب من الصفات الوراثية للكائن الحي أفضلها، لكنه لم يفسر ظهور صفات وراثية أقل جودة في بعض المخلوقات! ولم يفسر لما نلد أطفالا معوقين؟ كيف أخطأت الطبيعة في انتخابها؟

ولم ينته الأمر به إلي ذلك فحسب؛ لكنه تجاوز بهذا القانون الأشياء المادية، ليفرضه ويطبقه علي الأشياء المعنوية، لقد سلم بالواقع العضوي للحياة (كما يري هو)؛ فهي تخضع لقانون يحكمها هو التطور الانتخابي، وهو بذلك يري أن الحياة لها خصوصيتها من حيث الوظيفة، وهو في كلامه هذا لا يخرج عن المنهج الفلسفي الذي يدور حول الشيء ولا يعطي حكما قاطعا واضحا فيه.

المحور الثالث: مفهوم العقل عند علماء اللغة

لكن مع الأخذ في الاعتبار ما ذكرناه آنفا من آراء علماء العلوم المختلفة؛ فإن للعقل مفهومه الخاص لدى علماء اللغة؛ فما مفهومه عندهم؟ لقد تناول علماء اللغة والمشتغلون بدراستها وتطورها قضية العقل وعلاقته باللغة؛ بالدراسة. فكان لهم آراء مختلفة حوله وحول مفهومه؛ تشير إلي التوجه العلمي والفكري الآتي من رأيهم في اللغة.

١- راي جاكندوف:

يسأل جاكندوف عن العقل قائلا "ما هو العقل" ويجيب بقوله "إن العلوم المعرفية الحديثة أصبحت تستخدم مصطلح العقل (أو العقل /الدماغ) للتعبير عن النشاط الوظيفي للدماغ، الذي هو واع في جزء منه وغير واعٍ في الكثير من الأجزاء الأخرى"[2]

---

(١) البنية المحال اختزالها للعقل:١٦

(٢) دليل راوتليدج لعلم السيمياء واللغويات :١١٧

إنه يري العقل نشاطا وظيفيا للدماغ، فهناك شيء اسمه الدماغ، له نشاط وظيفي يقوم به، هذا النشاط الوظيفي سماه العقل، وهنا تتبدد الأفكار السابقة حول العقل التي تجعلنا نظن أنه شيء قائم بذاته داخل الدماغ؛ فندرك أنه ليس سوى وظيفة للدماغ؛ فهو النشاط الوظيفي الفعلي للدماغ؛ وهو رأي المذهب المادي الفسيولوجي في علم النفس الذي يري العقل وظيفة للجهاز العصبي، أما الدماغ فهي الصندوق الذي بداخله آلة التفكير (المخ) التي تقوم بعملية التفكير، لكنها لا تفكر، بل هي مكان التفكير وآلته، أما العقل فهو النشاط الفعلي الوظيفي للدماغ، وهو أصح الآراء حول العقل.

٢- بيكرتون:

يقول بيكرتون "لم يعرف تاريخ الإنسان شيئا أشد استعصاء علي البحث من طبيعة العقل، وكان واضحا جليا بالنسبة إلي كثير من الناس أن كلا منا يمتلك عنصرا متحررا من القوانين الفيزيائية التي تحكم بقية المخلوقات. وكان شيئا طيبا أن يدعي المرء ... أن لا شيء غير الذرات والفراغ في هذا الوجود، وبالتالي أن يكون كل ما في الكون مؤلفا من مادة ولا شيء غيرها. ولكن ما المادة التي تشكل الأفكار والمعتقدات والرغبات والأحقاد؟ فهذه الأشياء تبدو لنا حقيقة شأنها شأن أي جسم ملموس ... فالأشياء مثل الرغبات والمعتقدات وما من شأنها، رغم كونها غير ملموسة، إلا أن لها تأثيرات فعَّالة علي ما يبدو في عالم المادة،. بالتأكيد إذن أن هذه الظواهر الداخلية ووعينا بوجودها لا بد أن تنشأ عن آليات لا يدركها العالم العادي الذي نعرفه[١]"

٣- تشومسكي:

ذكر تشومسكي رأيه بقوله "اقترح لوك بأن الله ربما شاء أن يضيف إلي المادة قدرة تفكير مثلما ألحق الآثار بالحركة التي لا يمكننا بحال أن نتصور الحركة قادرة علي إحداثها"[٢] إن تشومسكي يوافق علي اقتراح لوك أن هناك صانع لهذا الإنسان بكل

---

(١) اللغة وسلوك الإنسان: ١٣٥

(٢) آفاق جديدة في دراسة اللغة والذهن: ص٨١

أجهزته؛ هو الذي جعل المادة تفكر وتبدع، هو الله سبحانه وتعالى، وهو إيمان منه بتلك القوى الغيبية الإلهية وقدرتها علي وضع ما تشاء في صنعتها من قدرات، ليتمكنوا من التفكير، هذا القول لدى كثير من علماء الغرب؛ وهذا اعترف منهم بوجود الله الخالق.

إن عملية التفكير معجزة لم نصل إلي تحليل دقيق لها، هل هي حقيقة ملموسة؟ أم ماذا؟ إننا أمام مشكلة كبرى، هي التمييز بين المخ والعقل؛ فقد كثرت الآراء حولهما؛ فتحولت إلي قضية فلسفية في إطار محاولة التمييز بين الجسد والروح، لكن الأمر قد وضوح أكثر الآن، فلو تكلمنا عن وجودهما الفعلي، وهي القضية الحقيقية الجديرة بالنقاش؛ فسنجد أنهما لهما الوجود الفعلي الملموس لدينا ولا يمكننا تجاهله.

٤- سيرل:

يمثل رأي سيرل اتجاها كبيرا في تحليل العمليات العقلية اللغوية، لذا وجب عرض رأيه وتفنيده، تقول مونيكا عنه "يمثل سيرل ... وجهة نظر فيزيائية أيضا عند بحث إشكالية العقل/ والجسد. فهو يعد ظواهر عقلية خواصَ للمخ، تحدث علي مستوى النشاط العصبي الفسيولوجي ... بيد أن الظواهر العقلية تُظهر بوضوح بوصفها خواص وظيفية للمخ علي المستوى الأعلى للإدراك خصائص، لا توجد في المستوى العصبي الأدنى."(١)

إن سيرل يتبنى وجهة النظر قائلة إن العقل خاصية وظيفية خاصة بنشاط المخ؛ على أن المخ مكون فيزيائي قابل للتحليل المعملي، والظواهر العقلية خواص وظيفية له، لا توجد في المستوى العصبي الأدنى، أي المستوى الذي يقوم علي التحليل المعملي. أما العقل فلا يخضع لهذا التحليل، فالعقل ليس شيئا ماديا فسيولوجيا كالمخ، بل هو خاصية خاصة بالمخ، تظهر علي المستوى الأعلى للإدراك، حيث تأتي المعلومات إلى المخ عن طرق مداركه المختلفة، فيفهمها بعد أن تُعْمِل فيها العقل كخاصية وظيفية للمخ.

---

(١) المرجع السابق:٦٨

نجد رأي سيرل معروفا لدى علماء النفس أصحاب المذهب المادي الفسيولوجي، وأنا أميل إليه لأنه يجعل العقل وظيفةً للمخ، كما أن المشي وظيفة للقدم، والضرب وظيفة لليد، فيضع حاجزا مميزا بين الآلة ووظيفتها، أي بين الأداة والفعل الناتج عنها.

إن ما يقوم به المخ من وظائف كالتفكير والحوار وغيرها تسمي عمليات عقلية؛ هي خواص للمخ؛ فلا شيء سوى المخ يقوم بتلك العمليات العقلية التي تسمي نسبة للعقل العمليات العقلية، وهي نشاط فسيولوجي للمخ؛ أي يقوم بها الجهاز العصبي المادي، الذي يخضع لعمليات التحليل المعملي كسائر العمليات التي يقوم بها الجهاز العصبي.

٥- جورج لايكوف ومارك جونسن:

أهم القضايا التي تتصل بالعقل والذهن في بحوثهما:

أ) مقدمة عن العقل والذهن:

العقل هو الذهن في مفهومهما الخاص (لايكوف وزميله) فقد تحدثا عن الذهن علي أنه من يقوم بصناعة بنية تصورية (عرفانية) كعمل أساسي له، ثم ربطا بينه وبين البنية العصبية؛ إنهما يعرضان لنماذج يقوم عملها علي التعاون بينهما. لهذا يجب عرض تصورهما عن الذهن، وعن البنية العصبية مع محاولة الفصل بين الذهن والبنية العصبية؛ مع بيان سبب فصلهما عند انتقالهما من الحديث عن واحد إلي الحديث عن الآخر؛ كذا كثرة عودتهم إلي الفلسفة التقليدية القديمة؛ بغرض بيان عيوبها. ليدخلا إلي عالم جديد؛ عالم العلوم المعرفية القائمة علي التجربة، فيدخل الجسد كمكون أساسي في صنع الإدراك والفهم وبناء تصور ذهني عن الأشياء (علي الرغم من أنه آلة خاصة بأداء تلك الأفعال غير المادية) ثم يوضحان علاقة الجسد بالعقل، ودور الذهن في فهم العالم من خلال الجسد، وبناء أنساقنا التصورية من خلال الذهن وآلته الكبرى الاستعارة لفهم العالم. فالاستعارة ـــ كما يري لايكوف ـــ وسيلة لتجسيد كل شيء وفهمه في عالمنا.

ب) الفرق بين الذهن والمخ:

يقول لايكوف "إنه لمن الأهمية بمكان أن نفهم بعمق ما هو الذهن ... لقد اعتبر العقل لمدة ألفي سنة، الخاصية المحددة للكائنات البشرية. ولا يتضمن **العقل** قدرتنا

علي الاستنتاج المنطقي فحسب، بل يتضمن أيضا مقدرتنا علي الاهتداء إلي السؤال، وعلي حل المشاكل، وعلي التقييم، والنقد، وتقليب الرأي بخصوص ما ينبغي أن نفعله وعلي التوصل إلي فهم معين لأنفسنا وللناس الآخرين وللعالم. وعليه، فالتغير الجذري في فهمنا للعقل سيكون عبارة عن تغير جذري في فهمنا لأنفسنا "[1]

إن هذه الدراسة تنطلق من فهمهما الجديد للذهن؛ فالذهن هو العقل الذي يمثل القدرة علي التفكير؛ والعقل في نظرهما هو من يقوم بكل هذا. يقولان "لا يمثل قدرتنا علي الاستنتاج المنطقي فحسب، بل يتضمن أيضا مقدرتنا علي الاهتداء إلي السؤال، وعلي حل المشاكل، وعلي التقييم، والنقد، وتقليب الرأي بخصوص ما ينبغي أن نفعله وعلي التوصل إلي فهم معين لأنفسنا وللناس الآخرين وللعالم"[2]

إن العقل ليس هو من يقوم بتلك المهام – كما ذكر لايكوف – فالعقل ليس الآلة التي تدير شئوننا بصورة غير مرئية من داخلنا. وهذا فهم غير صحيح للعقل لأنه ليس من يقوم فعلا بهذه الأمور؛ بل هو الاسم الذي نطلقه علي هذه الأعمال، فنسميها الأعمال أو العمليات العقلية التي هي في حقيقتها نشاط وظيفي للمخ؛ الذي سميناه خطأً بالعقل. لهذا فكل هذه الأنشطة أعمال يقوم بها المخ كوظيفة أساسية له.

ج) العلاقة بين العقل والذهن (المخ):

إذا كان العقل هو الذهن في تصورهما (لايكوف وزميله) وهو الذي يصنع كل العمليات التفكيرية داخلنا، فكيف ينشأ العقل في تصورهما؟ وكيف يعمل؟ إنه ينشأ من طبيعة أدمغتنا وأجسادنا، أي ينشأ من القدرات الطبيعية الموجودة في أدمغتنا، فالعقل نشاط نشأ نتيجة وجود أدمغتنا وأجسادنا وما بها من قدرات فطرية موجودة فيها. فالمخ هو الموجود داخل أجسادنا، والعقل هو نشاط ناتج عن عمل المخ، ولا يوجد جزء في جسدنا اسمه العقل.

يقول لايكوف "العقل ليس متحررا من الجسد،... فالعقل ينشأ من طبيعة أدمغتنا وأجسادنا، ومن تجربتنا الجسدية. وهذا لا يُعَبِّرُ عن الفكرة البديهية التي تقول: إن العقل لا بد له من جسد، بل عن الفكرة المناقضة التي تقول: إن بنية العقل الفعلية

(١) الفلسفة في الجسد:٣٨

(٢) الفلسفة في الجسد:٣٨

نفسها تنشأ من تفاصيل تجسدنا. فالآليات العصبية والمعرفية التي تتيح لنا أن ندرك وأن نتحرك، هي نفسها التي تخلق أنسقتنا التصورية، وتخلق صيغ تفكيرنا، وعليه، فلكي نفهم العقل، علينا أن نفهم تفاصيل نسقنا البصري، ونسقنا الحركي، والآليات العامة للترابطات العصبية."[1]

وأنا ألح وأؤكد على هذا الفهم الجيد للعقل لدى لايكوف وزميله؛ بأنه قدرة فطرية داخل الدماغ، وهو ينشأ متأثرا بطبيعة الدماغ، وطبيعة الجسد الذي فيه الدماغ، وتجارب هذا الجسد، فالعقل كقدرة فطرية تفكر وتدبر وتصنع ما تشاء في إطار إمكانياتها الجسدية والدماغية، لهذا يصح أن نقول: إن بنية العقل نشأت من تفاصيل أجسادنا، ولا يعنى بهذا التفصيل التكويني لنا، بل يعنى التفصيل السلوكي والإدراكي الذي نقوم به بالفعل، وتأثير عقولنا في إطار قدرتنا الجسدية وإمكانياتها علي هذا السلوك والإدراك.

د) دور البنية العصبية في بناء أنسقتنا التصورية:

١ــ ثم ينتقلا بنا إلى الجهاز العصبي ليشيرا إلى دوره في عملية بناء أنساقنا التصورية؛ إن الآليات العصبية والمعرفية هي من تمكننا من الإدراك والحركة. هذا جيد؛ فالمعلومة تصلنا من الخارج بواسطة مداركنا التي ترسلها عبر أسلاكنا العصبية إلى المخ، ثم فك شفرتها، وإرسال الأمر إلي أعضاء الجسد لتنفيذه، فنحن نتحرك بناء على أوامر من أمخاخنا عبر جهازنا العصبي. لهذا فإن العقل (بما يتوافر لديه من معلومات) يبني أنساقنا التصورية، فنحن نتصور الأشياء بعد أن يبني لها جهازنا العصبي صورا في فضائنا الذهني.

٢ــ قوله "إن آليات الترابط العصبية تخلق أنساقنا التصورية والحركية" يمكن أن نعقب عليه؛ فآليات الترابط العصبية التي يقصدها هي التشابكات العصبية، وهي زوائد الخلية العصبية التي تربط بين الخلايا. وهى من يوكل إليها مهمة تخزين المعلومات داخلها، ويتم استدعاؤها لغرض محدد هو بناء تصورات حول الشيء؛ عند الحاجة؛ لنتمكن من التفاعل مع المواقف الحوارية والفكرية الآنية.

---

(١) الفلسفة في الجسد: ٣٨

إننا كي نفهم آلية خلق أنساقنا التصورية وصياغة تفكيرنا؛ علينا أن فهم حقيقة العقل، وكيفية عمله في بناء أنساقنا البصرية وغيرها. إن لايكوف وزميله قد فهما العقل علي أنه آلة تفكير، تستمد معلوماتها من العالم الخارجي عبر مدخلات الخلية، ومن داخلها من خلال القدرة علي الإحساس بالجسد. أما البنية العصبية ـــ كما يتصوران ـــ فهي من تنفذ عمليات التفكير؛ وكل المدخلات (الخارجية والداخلية) هي الروافد التي تعد أساس اشتغال الذهن ليفكر، ويخلق من العدم ما لم نره من قبل، وربما لم نفكر فيه.

إنه افتراض يرفض رأي الفلسفية الكلاسيكية، ليدخل علينا برأي جديد يقوم علي التجربة، فيلج بنا في عالم أكبر وأوسع لفهم العقل وطبيعة عمله كآلة تفكير، فيربط بين عمل العقل الأساسي وهو التفكير، ومدخلات ومسببات هذا العمل؛ مع بيان دور الترابطات العصبية في ذلك، وهي ما يعرف بالبنية العصبية التي تُعْنى بالمخ البشر، وكل مكوناته (الجهاز العصبي)؛ فينسب عملية التفكير إلي الذهن/ العقل؛ وينسب للبنية العصبية عمل الآلة المنفذة لعملية التفكير.

ولكن الصحيح أن العقل: هو النشاط الوظيفي للجهاز العصبي (المخ)؛ فيدخل ضمن هذا المصطلح كل عملية تفكير تحدث داخل المخ. أما المخ: فهي آلة تنفيذ العمليات العقلية (التفكير بأنواعه) بواسطة الجهاز العصبي الذي يعد المخ جزءًا منه .

هـــ) تعاون العقل/ الذهن مع البنية العصبية لبناء التصور:

لابد أن نوضح بعض مفاهيم لايكوف المختلطة لبعض المصطلحات لنصححها ونبين تعاون العقل والمخ في عملية بناء التصور حول الشيء. إن مفهوم الذهن/ العقل عند لايكوف ينطلق من قضية أساسية آمن بها. وهي أنه آلة تفكير تصنع كل شيء غير مادي من تصورات وتخيلات وعمليات داخلية تحدث داخلنا في الوعي واللاوعي؛ ثم تنتقل إلى الواقع كسلوك فعلي للفرد. لكن الأمر أكبر من هذا الفهم؛ لهذا يجب أن نضع حدا فاصلا بين ما هو مادي يخضع للتحليل والتجربة كالبنية العصبية، وهي جهازنا العصبي كله؛ وما هو نشاط وظيفي للمخ يصنع بنية تخيلية غيبية عُرفت بالبنية تصورية. إن الذهن والعقل لفظان أُطلقا علي شيء واحد هو العمليات التي يقوم بها المخ عند معالجة المعلومة التي فيها والمعلومة التي تصلها من

مراكز الإدراك المختلفة في المخ، لهذا فإن الذهن والعقل هما النشاط الوظيفي للدماغ، وهذا ما قال به أصحاب المذهب النفسي المادي الفسيولوجي. لكننا نجد عند لايكوف خلطا بين الوظيفة والآلة؛ فقد اعتبر العقل / الذهن المسئول عن عمليات التفكير؛ فهو آلة التفكير عنده، إذن فما دور المخ في هذه العملية؟ لقد خلط بين المخ كآلة تفكير والعقل كنتيجة لعملية التفكير؛ أي كنشاط وظيفي للمخ، ثم يُدخل البنية العصبية ضمن تحليله لعمليات التفكير؛ ليجعلها أيضا هو المسئولة عن عمليات التفكير؛ والحقيقة أن المسئول عن عملية التفكير هو المخ الذي يدخل ضمن مكون أكبر هو الجهاز العصبي أو البنية العصبية.

آلية بناء التصور:

يقول "إن أي عملية تفكير تقوم بها مستعملا تصورا ما، تعني أن البنيات العصبية للذهن هي المسئولة عن هذا التفكير، ووفقا لهذا، فإن هندسة الشبكات العصبية لذهنك تحدد تصوراتك ونوع التفكير الذي بإمكانك أن تقوم به."[1] إن عملية التفكير تقوم بها مستعينا بتصور ما "كأن تفكر في نزول المطر علي الجبال مثلا، فتتصور في ذهنك الجبل والأحجار والماء يسيل صانعا أودية، فتستعين بمكونات الصورة وتصور حدوث الفعل".

إن تفسير عملية التفكير هذه عند لايكوف تقوم علي أن الجهاز العصبي **لذهنك** هو من يقوم بهذا العمل، وبواسطة هندسة الشبكات العصبية **لذهنك**؛ فتحدد تصوراتك ونوع التفكير الذي يمكنك القيام به. وهنا يُدْخل كلمة (ذهن) كمكون من مكونات الجهاز العصبي، وهنا يأتي الخلط عند لايكوف؛ فكل ما قاله من وجود بنية عصبية مسئولة عن التفكير وتصنعه صحيح، أما الذهن / العقل فلا يقوم بهذا العمل، بل هو نتيجة عمل البنية العصبية في صنع هذا التصور السابق عن نزول المطر؛ فتستعين بما في الشبكات العصبية من معلومات مخزنة عن المطر والماء والحجر والوادي، ثم تولف هندسة الشبكات العصبية بينها بالجمع بين هذه الأشياء في الفضاء الذهني لتبني تصورا للمطر.

---

(١) الفلسفة في الذهن: ٥٣

العلاقة بين الذهن والجسد عندهما:

ينطلق لايكوف من مفهوم راسخ لديه؛ هو أن الذهن متجسد فينا، لهذا يسأل "ما معنى أن يكون الذهن متجسدا ؟ كيف تُحَوْسب بناءات الخلايا العصبية، التي تعمل وفقا لمبادئ الحوسبة العصبية، ما نجربه بوصفه استنتاجات عقلية"[1]

هذا القول خلط بين شيئين: الآلة والوظيفة؛ فالآلة هي الدماغ والجهاز العصبي كله، والوظيفة هي عملية التفكير التي تسمى العمليات العقلية نسبة إلي شيء اعتبرناه المسئول عن تلك العمليات وسميناه العقل؛ وافترضنا أن له وجود مادي وهو غير صحيح. فيجب الفصل بين الأمرين لكي نخرج من هذه الدائرة والجدل الفلسفي الذي ذكره لايكوف.

الجسد داخل العقل:

ثم تأتي القضية الكبرى وهي تصوره للجسد الذي يجعله داخل العقل/ الذهن؛ فيسأل عما يجعل الذهن أو العقل متجسدا وموجودا فينا؛ إن ما يريد قوله هو: إن الجسد يقع داخل العقل، فنحن نفكر من خلاله، ونتصور بفضل وجودنا الجسدي، بآلة هي العقل لهذا عد العقل/ الذهن هو المسئول عن التفكير، وعد الجسد آلة العقل للإدراك والتفكير.

إنه يوسع من نظرته للجسد الذي يراه رابضا داخل العقل؛ ليوضح بذلك تصوره عن دور الاستعارة في صنع أخيلتنا وتصوراتنا. فالفكرة تقوم على اعتبار الجسد داخل العقل (كتصور استعاري) حيث يوظف العقلُ الجسدَ في بناء صوره الاستعارية، مثل: بطشت به يد الزمان، العمل قائم على قدم وساق، تمشي أفكاره إليّ، فيصبح الجسد مستعارا لبناء تصوراتنا داخل العقل، وهو صحيح في بعض الاستعارات وليست كلها؛ فبعض الاستعارات لا تستعين بالجسد في هذا، كما في استعارة ما بين السماء والأرض لوصف عرض الجنة، لا يصح قصر الاستعارة على الجسد، فيصبح مستقرا في العقل.

لهذا يسأل كيف يعمل بناء الخلية العصبية كحاسوب في صنع ما نجربه باعتباره استنتاجات عقلية؟ وهو ما سنوضحه في الفقرة الآتية.

---

(١) الفلسفة في الذهن: ٥٣

الفرق بين المخ والعقل في إطار البنية العصبية:

يظهر الفرق بين المخ والعقل بدراسة القدرة الإدراكية العصبية علي مستوى:

١- البحث العقلي: فهو الذي يبنى نماذج تصف جوانب اللغة المختلفة من تراكيب ودلالة وأصوات،كظواهر مجردة غير مادية تمثل اللغة، يستخدمها الناس في تواصلهم.

٢- البحث العصبي: يقوم بعكس ذلك؛ فيجعل الأساس البيولوجي في الصدارة التي توصف بواسطة موضحات عصبية بيولوجية، ليبين سير اللغة في الجهاز العصبي.

إذن هناك مستويان تتم من خلالهما عملية الكلام: المستوي العقلي والمستوي العصبي؛ الأول: مستوى تصوري يقوم بوضع تصور عقلي داخل الدماغ للكلام الذي سننطق به، وأي شيء نحاول فهمه، وهذا العمل هو النشاط الوظيفي للجهاز العصبي (الدماغ/ المخ).

الثاني: آلة تقوم بتنفيذ هذا التصور العقلي ليخرج في شكل لغة نتكلم ونتواصل بها.

إن العمليات الذهنية هي النشاط الوظيفي للدماغ، وهذا ما أكدته العلوم العصبية، وأن الدماغ مكان تتم فيه العمليات العقلية، ومن خلالها تظهر القدرة الذهنية التي لدى البشر كأنشطة وظيفية لها. هذا التصور نتيجة لما يقوم به الجهاز العصبي المركزي (المخ) من عمليات ذهنية، وهو تصور المدرسة العرفانية التي تجعل من الدماغ صندوقا للعمليات العقلية التي تُسيِّر الدماغُ منه كل شئون الإنسان وحياته، لهذا سموا الدماغ آلة العرفان، أي آلة معالجة المعرفة، وكل ما يحدث فيها من عمليات عقلية يقوم بها الدماغ سموها العمليات العرفانية، وما يتصل بها من علوم سموها العلوم العرفانية؛ لأنها تتم ضمن عمليات عقلية تقوم بها الدماغ؛ هذه العلوم المعرفية تشمل عددا من العلوم منها اللغة.

و) د. عبد الحميد جحفة:

يشير د. عبد الحميد جحفة إلي الخلاف الكبير حول العقل والدماغ والجسد بين المدارس الفلسفية المختلفة، التي تنطلق من قضية فلسفية حول العلاقة بين الفكر والمادة، حيث يقول "هل يمكن لنسق مادي خالص تتحكم فيه قواعد الفيزياء وحدها

أن يكون نسقا مفكرا؟ وهل يمكن لآلة تخضع لقواعد الفيزياء وحدها أن تفكر؟ هل يمكن أن نسند إليها حالات ذهنية؟"[1] ثم يذكر جحفة هذا الخلاف ومدارسه قائلا "فيؤكد من يدافعون عن الواحدية المادية:

١ـــ أن الدماغ – أو النسق العصبي المركزي – عبارة عن آلة أو هو نسق مادي يخضع لقوانين الفيزياء.

٢ـــ وأنه هو نفسه أساس سيرورة التفكير والظواهر الذهنية. وهذان الأمران ينكرهما المثاليون المدافعون عن الثنائية، إذ يفصلون بين العماد المادي والحالات الذهنية."[2].

هذا الخلاف كان بسبب تعدد وجهات النظر وانقسامها إلي مدرسة:

١– المدرسة العرفانية: تري الدماغ صندوقا تتم فيه العمليات العقلية العرفانية.

٢– المدرسة الواحدية: تري الدماغ آلة تخضع للقانون الفيزيائي، لأنها مادة فيزيائية.

أمَّا أن الدماغ أساس سيرورة التفكير والظواهر الذهنية؛ فإذا أخذنا هذه العبارة من منطلق أن الدماغ مكان العمليات الفكرية والظواهر الذهنية، فهذا صحيح. فالدماغ هي من يُسيِّر العمليات الذهنية والفكرية؛ وذلك بما فيها من خلايا عصبية تقوم بالعمليات الذهنية. لكن لازالت الدماغ صندوقا تتم فيه كل العمليات الذهنية من خلال تكويناته الأساسية (الجملة العصبية)، مع كل مراكز هذا الصندوق المختلفة.

٣– أما مدرسة المثاليين التي تفصل بين ما هو مادي وبين الحالات الذهنية؛ فقد أخذت سبيلا آخر؛ هو رفض إسناد تلك المهمة كاملة للدماغ، ففرقوا بين العمليات الذهنية (أي الجانب التصورية) وبين الجانب المادي الذي يتمثل في البناء العصبي للدماغ؛ فجعلوه منفصلا عن الجانب الذهني أي التصوري.

ز) رأي أخير:

هذا الرأي الأخير هو ما أميل إليه، ففي العمليات العقلية التي تتم في الدماغ

---

(١) الفلسفة في الجسد: ٨

(٢) الفلسفة في الجسد : ٨

بوصفها مكان التفكير لدى كل البشر؛ يتم بناء تصور حول القضايا الحياتية المختلفة صغيرها وكبيرها؛ ولكنه ما زال مبهما بالنسبة لنا، فكثير من قضايا التمثيل الذهني لا زالت غائبة عنا. لكن الأمر أصبح واضحا بعد أن اعتبرنا العقل نشاطا وظيفيا للدماغ؛ فالمرء يفكر بدماغه (أي جهازه العصبي) في كل شيء من خلال العمليات العقلية؛ ينتج عنها تفكير عقلي. فالدماغ آلة التفكير والعقل نشاط وظيفي ناتج عن عمل هذه الآلة.

مثال:

وللتمثيل علي ذلك نقول: من الممكن أن نمثل للعلاقة بين الدماغ كآلة تفكير؛ والعقل كنشاط وظيفي للآلة؛ بالعلاقة بين الحديد قبل أن نحوله إلي مغناطيس (عملية المغنطة)؛ وبين الحديد بعد أن نمغنطه، فيتحول إلي مغناطيس له قدرة علي جذب كل الحديد غير ممغنط. فالدماغ قبل أن تدخلها القدرة الإلهية علي التفكير لتتحول إلي دماغ مفكرة؛ تكون كالحديد قبل المغنطة، لكنه كنسق داخل الجسد مهيأ لهذا العمل (التفكير) بما وهبه الله سبحانه وتعالى من قدرة كامنة داخلها علي التفكير. فليس كل الحديد مغناطيسا، ولكن بعض الحديد مما تم مغنطته يصبح مغناطيسا، فقد تم تهيئته ليقوم بهذا العمل، فأصبح من وظائفه العمل كمغناطيس، إذن السؤال ما الفرق بين الحديد قبل وبعد عملية المغنطة؟ إنها عملية إضافة وظيفة لا تُرى بالعين للحديد.

كذا هذا النسق المادي الخالص (الدماغ بكل خلاياها العصبية) تم إعدادها لوظيفة التفكير، فأصبح لدى هذه الخلايا العصبية القدرة علي التفكير، وهذه القدرة هي ما جعل هذه الخلايا العصبية تفكر دون غيرها من خلايا الجسد، فهي الخلايا الوحيدة في الجسد المهيأة لهذا العمل، والخلايا الوحيدة التي تقوم بإصدار شحنات كهربائية.

إنها إجابة بسيطة علي تساؤلات قديمة لو أدخلنا في اعتبارنا طبيعة تكوين الخلايا العصبية؛ وكذا القدرة الفطرية علي التفكير التي لدى تلك الخلايا التي مكنتها من القيام بعمليات تفكير كعملية غير مرئية؛ لكنها تحدث داخل هذه الخلايا العصبية؛ ونري نتائجها وتأثيرها علينا وعلي الأشياء من حولنا؛ إن عمل هذه الخلايا العصبية يشبه عمل المغناطيسية في الحديد، فهو يقوم بعملية جذب للحديد بالقوة المغناطيسية التي داخله، لكننا لا نراها، لكن لا يعني عدم رؤيتنا لها أنها غير موجودة، إننا نري

أثرها علي قطعة الحديد الأخرى التي أمامنا، وكذا الطاقة الكهربية التي تصدر من الخلية ولا نراها وهي تسير عبر أسلاك عصبية، بل نري تأثيرها علي الجسد، فتحركه بطاقتها الكهربائية.

إن عملية التفكير التي تتم في هذا الجزء من الجسد (الدماغ) تنطلق من الطبيعة التكوينية للخلية العصبية. وتقوم بعمل أساسي وكبير هو عملية بناء التصورات داخل المخ. إن مفهوم البنية التصويرية يعني العمل غير المرئي في الدماغ الذي يقوم بكل العمليات الذهنية من تفكير وتخيل وتصور؛ إنها قدرة أكسبها الله سبحانه وتعالي للبشر دون غيرهم من مخلوقاته، لما هم مكلفون به من عمارة الأرض، وخلق وإبداع أشياء لم تكن موجودة في الكون من قبل، وهم متفاوتون في قدرتهم علي هذا ما بين مبدع ومقلد ومخطئ ومصيب، حسب قدرة خلاياه العصبية وطبيعتها واحتياجاته ونشاطه الذهني.

لقد قام العلماء بوضع تصورات وافتراضات حول عمل هذه الخلايا في قضية التفكير، مما يجعلنا ندرك القضية بعمق أكبر، وتصور أوسع، بل يبين لنا مدى حاجتنا لدراسة بناء وتكوين الدماغ/ المخ وآلية عملها، وأثر ذلك في عملية إنتاج اللغة وفهمها.